الفصل السابع

من بواعث التوكل

لكل عمل - من أعمال القلوب أو الجوارح - بواعث تدفع إليه ، وتحض عليه .

ومما يبعث على التوكل ، ويعين عليه جملة أُمور :

١ - معرفة الله بأسمائه الحسنى :

أولها : حُسن معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا . فمَن عرف ربه رحماناً رحيماً ، عزيزاً حكيماً ، سميعاً عليماً ، حياً قيوماً ، غنياً حميداً ، خبيراً بصيراً ، قهَّاراً قديراً ، رزَّاقاً ذا قوة متيناً ، لا يخفى عليه شيء ، ولا يعجزه شيء ، فعالاً لما يريد ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وجد نفسه مدفوعاً إلى الاستناد إليه ، والتوكل عليه .

ولذا نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية رضى الله عنهما : أن التوكل لا يصح ولا يُتصور من فيلسوف [(١)] ، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون فى مُلْكه ما لا يشاء ، ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جلَّ جلاله ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات .

فأى توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالَم سفليه وعلويه ؟ ولا هو فاعل باختياره ، ولا له إرادة ومشيئة ، ولا يقوم به صفة . فكل مَن كان بالله وصفاته أعلم وأعرف ، كان توكله أصحّ ، وأقوى [(٢)] .

---

(١) مثل أرسطو الذى يرى أن الإلٰه لا يعلم عن الكون شيئاً ، ولا يدبر فيه أمراً !

(٢) انظر : مدارج السالكين (٢/ ١١٨) طبع السُّنَّة المحمدية .

ومن ثَمَّ كان التوكل من خصائص دين التوحيد ، المتجسد فى دين المسلمين ، الذى تميز بإثبات صفات الكمال المطلق لله تعالى من العلم والحكمة ، والمشيئة والقدرة ، والغنى والرحمة ، والحياة والقيّومية ، وسائر الكمالات الإلهية . بخلاف غيرهم - كالغربيين - الذين يرون أن الله خلق العالَم أزلاً ثم تركه يسير بالنواميس ، ولم يعد يدبر فيه أمراً !

أما عندنا - نحن المسلمين - فالمُلْك كله بيد الله ، وتحت سلطانه ، يبسط ويقبض ، ويعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويُحيى ويُميت ، ويُعز ويُذل ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

فكلما قويت معرفة المرء بربه ، وقدره حق قدره ، وتجلّت له معانى أسمائه وصفاته ، قوى اعتصامه به ، واعتماده عليه ، وكان له نِعْم الوكيل ، ونِعْم المولى ، ونِعْم النصير .

ولهذا نجد القرآن يربط التوكل بعدد من أسماء الله الحسنى ، لما لها من إيحاء ودلالة وتأثير .

أكثرها وأعظمها : لفظ الجلالة وهو الاسم الجامع لكل الكمالات : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ (١) ، ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ ﴾ (٢) ، ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (٣) .

ومنها : اسم « الرحمن » منفرداً : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (٤) ، واسم « الرحيم » مقروناً بغيره : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (٥) والرحمن الرحيم لا تضيق رحمته الواسعة بمن لجأ إليه واعتمد عليه .

ومنها : اسم « العزيز » مقروناً بغيره كالرحيم والحكيم : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦) . . عزيز : أى لا يذل مَن لاذ بجنابه وأوى إلى حماه ، حكيم : لا يضيع مَن وثق بحسن تدبيره لمن تولاه .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ (٢) المائدة : ٢٣ (٣) الأعراف : ٨٩

(٤) الملك : ٢٩ (٥) الشعراء : ٢١٧ (٦) الأنفال : ٤٩

ومنها : اسم « الرب » كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (١) .

ومنها : اسم « الحى » كما فى قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ (٢) ، فالذى يعتمد على الخلق يعتمد على حى يعتريه الموت . أما مَن يعتمد على الله ، فهو يعتمد على حى لا يموت : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٣) .

ومنها : اسما « السميع العليم » كما فى قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) ؛ فهو يسمع دعاء من دعاه ، جهراً أو سراً ، ويعلم ما تكنه الصدور : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (٥) .

ولذا ذكر ابن القيم : أن التوكل من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى ، فإن له تعلقاً بعامة أسماء الأفعال ، وأسماء الصفات .

فله تعلق باسم « الغفار والتواب والعفو والرؤوف والرحيم » ، وتعلق باسم « الفتَّاح والوهَّاب والرزَّاق والمعطى والمحيى » ، وتعلق باسم « المعز المذل ، الخافض الرافع المانع » من جهة توكله عليه فى إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر ، وتعلق بأسماء « القدرة والإرادة » ، وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ، ولهذا فسَّره مَن فسَّره من الأئمة بأنه : « المعرفة بالله » (٦) .

إن الإنسان إذا اعتمد على مخلوق مثله ، وكان ذا كفاية وهمة ، قال له : لا تحمل هماً ، لقد اعتمدتَ على رجل ! كما قيل : فنبه لها عُمَرًا ثم نم ! فكيف بالاعتماد على الرب الأعلى ؟

* *

(١) الرعد : ٣٠ (٢) الفرقان : ٥٨ (٣) القصص : ٨٨

(٤) الشعراء : ٢١٧ - ٢٢٠ (٥) طه : ٧

(٦) انظر : مدارج السالكين (٢/ ١٢٥) طبع السُّنَّة المحمدية .

٢ - الثقة بالله تعالى :

ثانيها : الثقة به عَزَّ وجَلَّ ، وهى ثمرة المعرفة ، فإذا عرف الله حق معرفته وثق به ثقة مطلقة ، تسكن إليها نفسه ويطمئن بها قلبه .

ومن ذلك : الثقة بشمول علمه ، وكمال حكمته ، وسعة رحمته ، وعموم قدرته ، وطلاقة مشيئته . وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، بل أبر بهم من أنفسهم ، وأعلم بمصالحهم من ذواتهم : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

ومن ذلك : الثقة بوعده الذى سجَّله فى كتابه وعلى لسان رسوله : أنه ولى الذين آمنوا والمدافع عنهم ، والمنجى لهم ، وأنه ناصرهم على عدو الله وعدوهم ، وأنه معهم بتأييده وعنايته ، وأنه لا يُخلف الميعاد . وأنه يُملى للظالمين ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وأنه يمهل ، ولا يهمل ، وأنه للفراعنة والطغاة بالمرصاد .

ومن ذلك : الثقة بما تكفَّل به من الرزق لخلقه ، فقد وعد بذلك : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٢) . ثم أكَّد الوعد بالضمان : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ (٣) . ثم أكد الضمان بالقَسَم : ﴿ وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٤) .

فالواثق بوعد الله تعالى وضمانه لا يخاف فوت رزقه أبداً ، فإن أحداً لا يستطيع أن يأكل من رزقه ، كما أن أحداً لا يستطيع أن يُقدِّم من أجله .

وقد جعل صاحب « منازل السائرين » : الثقة بالله تعالى منزلة أخرى غير منزلة « التوكل » وغير منزلتى « التفويض » و« التسليم » ، وقد جعل كلا منهما منزلة مستقلة أيضاً .

---

(١) الملك : ١٤ (٢) الذاريات : ٥٨

(٣) هود : ٦ (٤) الذاريات : ٢٢ - ٢٣

قال رحمه الله : « الثقة : سواد عين التوكل ، ونقطة دائرة التفويض ، وسويداء قلب التسليم » .

وصدر الباب بقوله تعالى لأُم موسى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) .

فإن فعلها هذا - كما يقول ابن القيم - هو عَيْن ثقتها بالله تعالى . إذ لولا كمال ثقتها بربها ، لما ألقت بولدها وفلذة كبدها فى تيار الماء ، تتلاعب به أمواجه وجرياته إلى حيث ينتهى أو يقف (٢) .

والذى ينقدح لى : أن « الثقة » ليست منزلة مستقلة ، ولذا لم يرد نص خاص بها فى الكتاب أو السُّنَّة . وإنما هى دافع إلى التوكل وباعث عليه . وكلما ازدادت ثقة العبد بربه وتوثقت عراها ، قوى توكله على الله تعالى ، ورسخت جذوره ، وبسقت فروعه .

والموظف لأنه واثق بأنه يقبض فى مطلع كل شهر راتباً معيناً ، التزمت به الحكومة . فهو يرتب حياته على هذا الأساس ، لثقته بها ، ولهذا لو اضطربت أحوال حكومة ما ، وغدت خزينتها مهددة بالعجز عن دفع المستحقات ، ضعفت هذه الثقة عند الموظفين ، وربما انعدمت . فمَن وعده ملك الملوك لا تهتز ثقته به بحال .

وكذلك مَن أعطاه ملك درهماً فسرق منه ، فقال له الملك : عندى أضعافه ، فلا تهتم ، متى جئت إلىّ أعطيتك من خزائننا أضعافه . فإذا علم صحة قول الملك ، ووثق به ، واطمأن إليه ، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك ، لم يحزنه فوته .

* *

---

(١) القصص : ٧ (٢) المدارج : ٢/ ١٤٣

٣ - معرفة الإنسان بنفسه وعجزه :

وثالث هذه البواعث على التوكل : معرفة الإنسان بضعفه الفطرى ، وعجزه الذاتى ، ومحدودية علمه وإرادته وقدرته ، فقد خلقه الله ضعيفاً ، واخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وأعطاه أدوات السمع والبصر والفؤاد، ليتعلم ما لم يكن يعلم . كما منحه من الإرادة والقدرة ما يمكنه من أداء رسالته فى الأرض .

ولكن يظل علمه علم بَشَر ، وإرادته إرادة بَشَر ، وقدرته قدرة بشر . أى مخلوق محدث مسبوق بالعدم ، وملحوق بالموت . فوجوده وحياته وعلمه وكينونته كلها ليست بذاته ولا من ذاته ، بل بربه ومن ربه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (١) ، ﴿ أَوَ لَا يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ (٢) .

ومن هنا يعلم الإنسان حق العلم ، ويوقن حق اليقين : أنْ لا حول له ولا قُوَّة إلا بالله ، الذى خلقه فسَّواه ، وعلَّمه ما لم يكن يعلم ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . فما به من نعمة العلم ، أو نعمة القدرة ، أو نعمة الحياة والوجود ، فهى من الله وبالله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (٣) .

وهذا من أعظم البواعث لتعلق العبد بربه : تعلق العاجز بالقدير ، والضعيف بالقوى ، والفقير بالغنى ، والجهول بالعليم ، والمحدَث بالقديم ، والذليل بالعزيز ، والفانى بالباقى . . وبعبارة أخرى : تعلق المربوب بالرب ، والمخلوق بالخالق ، والميت بالحى الذى لا يموت . تعلق مَن لا يملك شيئاً بمن يملك كل شىء ، ومَن لا يقدر على شىء بمن هو على كل شىء قدير ، ومَن لا يعلم متى يموت ، ولا أين يموت ، ولا كيف يموت ، بمن لا يخفى عليه

---

(١) الإنسان : ١ - ٢ (٢) مريم : ٦٧ (٣) النحل : ٥٣

شيء في الأرض ولا في السماء . وهذا التعلق بالله تعالى والالتجاء إليه ، والاعتماد عليه سبحانه هو : التوكل .

إن معرفة الإنسان بنفسه باب إلى معرفة ربه . ولهذا قال العارفون : « مَن عرف نفسه فقد عرف ربه » .

ولهذا كان أبْعدَ الخلق عن التوكل المغرورن بأنفسهم ، المعجبون بعلمهم ، المعتزون بقوَّتهم ، المزهوون بما يملكون من ثروة أو موهبة ، بحيث يحسبون أنهم استغنوا عن الله تعالى . كما قال سبحانه : ﴿ كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ* أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (١) ، فسبب طغيانه : رؤيته لنفسه في حالة استغناء عن غيره ، وربما توهَّم أنه مستغن عن ربه جَلَّ شأنه .

حسب ابن نوح الكافر أن قوَّته ستعصمه من الغرق ، إذا جاء الطوفان ، وأنه يستطيع أن يأوى إلى جبل يحميه ، وجهل أنه لا عاصم من أمر الله إذا حم القضاء .

وزعم قارون أن كنوزه - التى تنوء مفاتحها بالعصبة أُولى القوة - ستحميه من بأس الله إذا جاء ، ولم يستمع لنصيحة قومه بشأن ماله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى ﴾ (٢) ، حتى خسف الله به وبداره الأرض ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٣) .

سمعت قصة رجل من كبار الأثرياء المتغطرسين ، خوَّفه بعض جلسائه يوماً من غدرات الزمن وتقلبات الأيام ، فقال : إن عندى أموالاً تكفينى أعماراً بعد عمرى ، وهى تزيد ولا تنقص . ولو أن الفقر ركب جواداً سريعاً لمدة سنة أو أكثر ليلحق بى ، لم يستطع !

قال محدِّثى : لقد عشتُ حتى رأيت هذا الرجل يقبل الصدقة من بعض مَن كانوا يعملون عنده أُجراء .

---

(١) العلق : ٦ - ٧ (٢) القصص : ٧٨ (٣) القصص : ٨١

إن المعجب المغرور محجوب عن رؤية نفسه ، فهو لذلك محجوب عن معرفة ربه . ومَن عميت بصيرته إلى هذه الدرجة لم يُتصور منه الاتكال على ربه . ولم يوقن بحقيقة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١) .

إنما يُتصور التوكل ممن يشعر بالافتقار إلى مولاه ، وأنه لا يمكنه الاستغناء عنه طرفة عين ولا ما هو أقل منها .

وكان مما علَّمه النبى ﷺ لأمته فى علاج الكرب ، والضيق قوله : « دعواتُ المكروب : اللَّهُمَّ رحمتَك أرجو ، فلا تكِلْنى إلى نفسى طرفةَ عَيْن ، وأصلح لى شأنى كلَّه ، لَا إلٰهَ إلَّا أنت » (٢) .

وقال لابنته وأحب الناس إليه : فاطمة الزهراء رضى الله عنها : « ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيكِ به : أن تقولى إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ : يا حىُّ يا قيوم برحمتك أستغيث ! أصلح لى شأنى كلَّه ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عَيْن » (٣) .

ولذلك مثَّل المربون الصالحون حال المتوكل على الله - الذى غمره الشعور بالحاجة الدائمة إليه - بحال الطفل الرضيع فى اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدى أمه لا يعرف غيرها ، بل لا يعرف غيره ، وليس فى قلبه التفات إلى شىء سواه . كما قال بعض العارفين : المتوكل كالطفل ، لا يعرف شيئاً يأوى إليه إلا ثدى أُمه . كذلك المتوكل لا يأوى إلَّا إلى ربه سبحانه !

* *

---

(١) فاطر : ١٥

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٠) ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٦٥١) ، وأحمد فى المسند (٥/ ٤٢) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٧٠١) ، وابن حبان فى صحيحه (الإحسان : ٩٧٠) كلهم من حديث أبى بكرة : نفيع بن الحارث رضى الله عنه .

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٤٥) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

٤ – المعرفة بفضل التوكل وأحوال المتوكلين ومعايشتهم :

ومن بواعث التوكل : المعرفة بفضله وفضل أهله ، وما خصهم الله ورسوله به من حُسْن الثناء ، وما وعدهم به من حُسْن الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وما يُعقبه التوكل من أطيب الثمرات فى حياة الفرد والجماعة ، ويكفى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٢) ورسوخ هذه المعرفة حتى تستحل يقيناً دافعاً .

ومثل ذلك مطالعة أحوال المتوكلين ، من الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين . وعلى رأسهم سيد المتوكلين محمد رسول الله ﷺ .

إن معايشة سير المتوكلين على الله من أعظم ما يُقوِّى القلب المتردد الضعيف فى الاعتماد على الله ، والتوكل عليه ، والتفويض إليه .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشـــبه بالرجـــال فـلاح

وأعظم من ذلك تأثيراً : أن تجد من الأحياء مَن تأخذ عنه ذلك بالصحبة والقدوة ، وقليل ما هم ، ولا تخلو الأرض منهم إن شاء الله . وقد قيل : إن حال رجل فى ألف رجل ، أبلغ من مقال ألف رجل فى رجل !

* * *

(١) الطلاق : ٣ (٢) آل عمران : ١٥٩